الباب السابع

في ذكر أقسامه باعتبار متعلقة الصبر ثلاثة أقسام

صَبرٌ على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في «**فتوح الغيب**»: «**لا بد للعبد من أمر يفعله ونهي يجتنبه وقدر يصبر عليه**». وهذا الكلام يتعلّق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى وطرف من جهة العبد فأما الذي من جهة الرب، فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلّق بأمره والكوني متعلق بخلقه. وهو سبحانه له الخلق والأمر وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب: فإن المطلوب إن كان محبوباً له فالمطلوب فعله إما واجباً وإما مستحباً ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة وذلك أيضاً موقوف على الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي.

وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب «أحمد» أصحهما أنه مستحب فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور، وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفاً ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها، فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر والشيخ دائماً يحوم حول هذه

الأصول الثلاثة كقوله: يا بني افعل المأمور، واجتنب المحظور، واصبر على المقدور وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: **«يا بُنَي أقم الصَلاةَ وأمُر بالمعروف وانه عَن المُنكر واصبِر على ما أصابك»** فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر.

أما من حديث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه وأما من حيث اللزوم الشرعي فان الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ (الرعد: ١٩-٢٢) فجمع مقامات الإسلام، والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه وذلك يعمّ أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه.

ثم وصفهم بأنهم يَصِلون ما أمر الله به أن يوصل ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له، والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد.

وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل وأمر أن توصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به، وتصديقه وتحكيمه في كل شيء والرضا لحكمه والتسليم له وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالدة والناس أجمعين صلوات الله وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، وذلك مما أمر به أنْ يوصل وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وأمر أنْ نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل

ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم وأنْ نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا وأنْ نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي اليهم ما نحب أن يأتوه الينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه. فهذا كله مما أمر الله به أنْ يوصل، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (الرعد: ٢٢) فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهي الصلاة فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (الرعد: ٢٢) وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (البقرة: ٤٥) وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ (البقرة: ١٥٣) ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرأون بالحسنة السيئة فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ (القصص: ٥٤) وقد فسر بهذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هود: ١١٤) وقال النبي ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**» والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها اشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور وقد ذكر تعالى هذه

الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ (آل عمران: ١٢٥) وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ (يوسف: ٩٠) وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ (آل عمران: ٢٠٠) فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة فإن حقيقة التقوى فعل المأمور، وترك المحظور.

□